**مدارس الأدب المقارن**

**المدرســــة الفرنسيــــــة :**

كان للعلماء الفرنسيين دور متميز وفضل كبير في قيام الأدب المقارن منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، علما له مفهومه المحدد نسبيا ومنهجه في البحث الذي أراد أن يتميز بين العلوم الاخرى حول الأدب .

وبفضل ما تتمتع به فرنسا من ثقافة ونفوذ وربما هيمنة أيضا تمتد جذورها إلى منتصف القرن السابع عشر ، فقد استطاعت وجهة النظر الفرنسية أن تفرض نفسها؛ وأن تترك بصماتها على مفهوم الأدب المقارن منذ نشأته الأولى؛ حتى أُخِذ يُعرف بـ ( المفهوم الفرنسي للأدب المقارن ).

لقد كان لآراء بول فان تيغم، وجان ماري كاريه، وفرانسوا غويار، وغيرهم دور كبير وبارز لا في تحديد هذا المفهوم فحسب بل في انتشاره أيضا في معظم البلدان الأوربية وفي وصوله إلى أقطار اخرى خارج أوربا؛ بما في ذلك أمريكا.

يقول بول فان تيغم في مقدمة كتابه ( الأدب المقارن ): (( والأدب المقارن علم فرنسي في جله، له ماضيه اللامع وله آماله العراض )).

ثم يقدم تعريفا محددا حيث يقول: (( إن الأدب المقارن بالمعنى الأصلي للكلمة يدرس في العالب علاقات ثنائية ، أي علاقات بين عنصرين فحسب، سواء أكان هذان العنصران كتابين أم كاتبين أم طائفتين من الكتب أو الكتَّاب، أم أدبين كاملين. وسواء أ كانت هذه العلاقات تتصل بمادة الأثر الفني أم بصورته )).

ففي هذا النص يكشف لنا فان تيغم عن فهمه لجوهر الدراسة المقارنة ، فهي دراسة العلاقات الثنائية أي بين ( مُرسِل ومُسْتَقبِل ) ثم ( واسطة ) تربط بينهما وتأخذ على عاتقها مهمة نقل ( الرسالة ) من الطرف الأول إلى الطرف الثاني .

ولا يغيب عن بال فان تيغم الطابع الغربي للظروف التاريخية التي كانت وراء قيام منهج الدراسة المقارنة في المراحل الأولى؛ فالخصائص القومية لهذه الآداب، وجوهر العلاقات التاريخية بينها هي التي وجهت دائما ذهن الباحث المقارن وفكره وهو يفكر بحلول يراها مناسبة للمعضلات التي تواجهه .

ولعل جان ماري كاريه أكثر وضوحا وجزما من سابقه وهو يربط الدراسة المقارنة بمناهج البحث التاريخي، وكذلك في موقفه من قضية التأثير والتأثر وأهميته في أية دراسة مقارنة حيث يقول: (( إن كلمة التأثير معناها غالبا التأويل، فرد الفعل، فالمقارنة، فالمعركة)) وهذا ما يذكرنا بقول بول فاليري: (( لا يوجد شيء أكثر ابتكارا ولا أشد شخصية من أن يتغذى الانسان من الآخرين، ولكن ينبغي هضم هذا الغذاء، فالحق ان الاسد مكون من خراف مهضومة )).

وعلى هذا فان دراسة الأدب المقارن إنما تهدف إلى وصف انتقال شيء أدبي إلى خارج حدوده اللغوية، كما يتعين على الدارس أن ينظر إلى الأمر من عدة نواحي فــ :

* إما أن يدرس موضوع هذا الانتقال، وهو عادة إما أنواع أدبية أو أشكال فنية أو أساليب وصور تعبيرية، وأما آراء أو نماذج، أو أساطير أو عواطف .
* وإما أن يدرس كيفية الانتقال، وهو إما أن تناول ناحية ( المرسَل ) فيدرس رواج مؤلف أو كتاب أو نوع أدبي في بلد أجنبي و( التأثير ) الذي احدثه هذا كله فيه والتقليدات التي كان موضوعا لها، فالمرسَل هنا واحد والمظاهر كثيرة .
* وإما أن يقف الدارس من ناحية ( المرسِل ) فيدرس المصادر التي استمد منها المؤلف، والتي قد تكون كثيرة إلى غير غاية ، والوحدة في هذه المرة هي وحدة المستقبِل .
* ثم لابد من الوقوف عند ( الوسطاء ) الذين سهلوا انتقال التأثيرات ووحدة كل موضوع هنا هي وحدة الناقل .

من خلال ما تقدم يتضح ان منهج الأدب المقارن هو منهج تاريخي .

**المدرســـــة الأمريكـــــــية :**

يبدو ان الاهتمام بمنهج الدراسة المقارنة لم يبقَ حكرا على المدرسة الفرنسية، إذ سرعان ما ظهرت عناصر بحثية جديدة تدفعها دوافع قومية واهتمامات منهجية مغايرة، ولعل رينيه ويليك من أوائل مَنْ تحفظوا على اسس المنهج الفرنسي للأأدب المقارن، وذلك في كتابه ( نظرية الأدب ) الذي شاركه فيه ( أوستن وارين )، وكرر هذا التحفظ في بحثه ( أزمة الأدب المقارن ) الذي ألقاه في المؤتمر الثاني للرابطة الدولية للأدب المقارن في شابل هل عام ( 1958م )، يدفعه إلى ذلك هاجس :

1. احساسه بالانتماء الأمريكي، وايمانه بحق هذا الأدب بالاستقلال عن هيمنة ووصاية الثقافة الأوربية والآداب الأوربية .
2. حرصه على تعميم الدراسة الفنية التي يدعو إليها النقد الجديد في وجه النقد الاجتماعي والاعتقادي الذي ساد الساحة الأوربية، ولاسيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

يقول رينيه ويليك في بحثه الموسوم ( أزمة الأدب المقارن ): (( إن أخطر دلالة على الوضع المهتز الذي تمر به دراساتنا هي انها لم تتمكن لحد الآن من تحديد دائرة عملها ومنهجيتها، وأنا اعتقد ان برامج العمل التي نشرها فان تيغم، وكاري، وغويار قد فشلت في هذه المهمة الأساسية؛ فقد أثقلوا الأدب المقارن بمنهجية عفا عليها الزمن، ووضعوا عليه أحمال القرن التاسع عشر الميتة من ولع بالحقائق والعلوم النسبية التاريخية )).

ومعلوم ان الأدب المقارن منذ البداية قام بوصفه علما بدراسة العلاقات بين آداب قومية مختلفة ؛ إلا ان ويليك يعترض على ذلك قائلا:(( لاشك عندي ان محاولة حصر الأدب المقارن في دراسة التجارة الخارجية للأدب نوع من الجهد الضائع )) ذلك انه يدعو إلى جمع فروع الدراسات الأدبية في باب واحد هو( الدراسات الأدبية) .

ويليك يسعى جاهدا لالغاء مناطق نفوذ جميع ميادين الدراسات الأدبية إلا ميدانا واحدا، هو ميدان النقد الجديد والجديد حصرا؛ وحجته في ذلك (( ان العمل الفني يمكن أن يفهم باعتباره بنية ذات طبقات من الرموز والمعاني المستقلة تمام الاستقلال عن العمليات التي تدور في ذهن الكاتب أثناء التأليف، ولذا فهي مستقلة أيضا عن المؤثرات التي تكون قد شكلت ذهنه )). واللافت للنظر ان ويليك لم يقدم للأدب المقارن تعريفا يحاول بواسطته معالجة خلل أو سد نقص بل أراد أن يزيح الدراسة المقارنة من طريق النقد الجديد، أو أن يجعله \_ في أحسن الأحوال \_ في خدمة هذا النقد، وهذه وجهة نظر سلبية تجاه المدرسة الأمريكية؛ إلاّ ان وجهة النظر الأمريكية بخصوص الأدب المقارن والتي تعد إضافة ايجابية وسعت من مجالاته وفتحت أمامه آفاقا جديدة نجدها عند كل من هنري ريماك وأوين ألدرج .

فقد عرف هنري ريماك الأدب المقارن بانه: (( دراسة الأدب فيما وراء حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الآداب من ناحية، والمجالات الأخرى للمعرفة والاعتقاد كالفنون ( الرسم، والنحت، والعمارة، والموسيقى مثلا ) والفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية ( كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والعلوم والدين ...الخ ) من ناحية أخرى، وباختصار هو مقارنة أدب بأدب آخر أو آداب أخرى ومقارنة الأدب بمجالات التعبير الانساني الأخرى )).

وقريبا من هذا التعريف كان تعريف أوين ألدريج للأدب المقارن؛ حيق يقول : (( ان الأدب المقارن لا يقارن الآداب القومية بمعنى أن يضع أحدها إزاء الآخر ، ولكنه بدلا من ذلك يقدم منهجا لتوسيع نظرة الانسان في تناوله للأعمال المعينة .....باختصار يمكن تعريف الأدب المقارن بانه دراسة ظاهرة أدبية من وجهة نظر أكثر من أدب واحد ، أو متصلة بعلم آخر أو أكثر )).

من خلال هذين التعريفين نلحظ جهد هنري ريماك وأوين الدريج في ضم جهودهما إلى جهود المقارنين الآخرين والعمل على تطوير أدواته وتوسيع دائرة نشاطه ، بل والاعتراف بالدور الوظيفي للأدب المقارن في توسيع نظرة الإنسان في تناوله للأعمال الأدبية .

لقد سلط الموقف الأمريكي الضوء على أهم عيوب المفهوم التقليدي وهي :

1. ضيق الرقعة المكانية(فقد انحصرت بحوثه بالآداب الرئيسية لبلدان أوربا الغربية )
2. ضيق المدى الزمني ( ان البحوث المقارنة لم تذهب أول الأمر إلى أبعد من عصر النهضة ثم تنسحب إلى القرون التي تلت ذلك العصر ) .
3. الاهتمام الاستثنائي بظاهرتي التأثير والتأثر المترتبتين على علاقة تاريخية ثابتة .
4. اتسام البحوث بالنزعة التجزيئية ( أخذ الظواهر متفرقة ومعزولة عن بعضها ).

وترتب على ذلك :

دفع الحدود الزمانية إلى الخلف لتشمل القرون الوسطى، وتوسيع الرقعة المكانية لتشمل الدراسات المقارنة آداب بلدان أوربا الشرقية والوسطى في وقت لاحق، ومن ثم آداب الشرق الأوسط بما في ذلك اليابان وآداب القارات الخمس جميعها .

وإذا كان المفهوم الأمريكي محقا في انتقاد المفهوم الفرنسي التقليدي لتأكيده الاستثنائي على ظاهرتي التأثر والتأثير المترتبتين على علاقة تاريخية مبرهن عليها، فهو غير محق في إخراج هاتين الظاهرتين من دائرة اهتمام الدراسة المقارنة والاكتفاء أحيانا بمجرد مظاهر الشبه والاختلاف بين الآداب، أو بين الآداب وحقول المعرفة والاعتقاد الأخرى. قد يُعاب على المفهوم الفرنسي اهتمامه الاستثنائي بهذه المسألة وقد يُلام أيضا لاصراره على رفض تناول التشابهات والإختلافات التي يعجز البحث عن أن يعزوها إلى صِلات تاريخية مباشرة بين الظواهر الأوربية التي تجري مقارنتها غير ان هذا العيب شيء، ونفي الظاهرة من أساسها لايمكن أن يعدو هو الآخر إلاّ عيبا .

وكذلك فان الدعوة الأمريكية إلى فتح باب الدراسة المقارنة أمام مقارنة الأدب بغيره من أشكال المعرفة والاعتقاد من غير ضابط من شأنه أن يهدد بتحويل الأدب المقارن إلى فلسفة للثقافة وإلى علم عام حول الفن، وكذلك يهدد بتجاوز حدود البحث المقارن وتعقيد مهماته.

**المدرســــة الاشتراكــــــية:**

في أواسط عقد الخمسينات عرفت الدراسات المقارنة حالة من الانتعاش داخل البلدان الاشتراكية ، ولاسيما في الاتحاد السوفيتي، وعلى اثر المؤتمر الذي عقده المقارنون من البلدان الاشتراكية في بودابست عام 1962م والذي حضره فريق من المقارنين الغربيين .

لقد كان للمدرسة الاشتراكية اعتراضاتها على كل من المدرسة الفرنسية التقليدية والمدرسة الامريكية ، كما ان هناك التقاء المدرسة الاشتراكية مع المدرسة الفرنسية في عدد من النقاط ضد المدرسة الأمريكية وبالعكس أيضا . فهي تلتقي في الظاهر مع المدرسة الأمريكية ؛ وهي تعترض على اهتمام مؤسس المدرسة الفرنسية الزائد عن الحد بامور شكلية ؛ مثل وسائل الاتصال وطرقه وأشكاله ؛ إلاّ ان المدرسة الاشتراكية في الوقت نفسه لاتقر المدرسة الأمريكية في اعتراضها في اهتمام المدرسة الفرنسية بعمليات التأثر والتأثير ، وإن كانت لاتعد عمليات التأثر والتأثير شرطا وحيدا لإجراء الدراسة المقارنة ؛ كما تصر المدرسة الفرنسية.

وتعتمد المدرسة الاشتراكية في منهجها على وجود مظاهر الشبه أو الاختلاف بين الآداب ذات الانتماءات القومية المختلفة ، والكشف عن دراسة هذه المظاهر عن قوانين التاريخ الموضوعية التي تحكمت بهذه المظاهر ، وحتى في حالة وجود مظاهر التأثير والتأثر ، فالمقارن الاشتراكي لا يوافق الباحث الفرسي الذي يبالغ في دور الاشخاص في طبيعة ومستوى هذه العملية .

وربما اقتضى المنهج الاشتراكي طرح سؤال مثلا لماذا تأخر ظهور الاتجاه الرومانتيكي في فرنسا ولماذا كان قد سبق إلى الظهور في كل من انكلترا والمانيا ؟ وسيبحث عن العلل والاسباب في هذه الحالة كامنة في عمق البنى التحتية للمجتمع هنا وهناك أيضا .

إن مما يدخل ضمن اهتمام المدرسة الاشتراكية ظواهر من نوع آخر ، منها ظواهر عدم التأثر مثلا . مثال ذلك موقف الكلاسيكيين الجدد الاوربيين بعامة من إرث شكسبير ، فهل يُعقل أديبا مثل مولير لم يسمع بشسبير ؟ هل يُعقل ان راسين يجهل شكسبير جهلا تاما ؟ ثم ما بال الأدباء الانكليز انفسهم في عصر دعوة الملكية الموازي لعصر راسين وموليير ، هل كانوا هم أيضا يجهلون شكسبير ؟ قطعا لا . إذن لماذا أشاحوا بوجوههم عنه ، وتطلعوا نحو الادب الفرنسي الكلاسيكي ؟

سؤال آخر : لماذا يظهر ديدرو وهو فرنسي من عصر التنوير ومع جميع ممثلي الاتجاه التنويري في أوربا إعجابهم بشكسبير ، بينما يرفضه فولتير على الرغم من انه لم ينكر عبقريته ؟ أهي مسألة ذوق شخصي ، وهوى نفوس ، وأمزجة متقلبة ؟ قطعا لا .

إذا العِلة من وجهة نظر اشتراكية تكمن في مستوى التطور المادي لحياة المجتمع نفسه في القوانين التاريخية التي تطبع الحياة بطابعها ، وتحدد هويتها .

ان المدرسة الاشتراكية تعتقد ان حركة التاريخ هي التي وراء الوقوف عن مصير الكلاسيكية الجديدة في مرحلة تفككها ، وهي نفسها المسؤولة عن توفير شروط وجود وقوة تلك القوة الاجتماعية الاخرى التي وجدت نفسها حريصة على تهديم هذا الصرح ، وهكذا جاء اكتشافها لشكسبير في وقت كان أحوج ما تكون فيه إلى أدب شكسبير سلاحا بيدها لتحقيق هذا الغرض ولتجسيد مُثلها في الحياة .

وهكذا فقد كانت القوانين من وجهة نظر اشتراكية واحدة ، وإن كان التعامل معها أو التأثر بها متباينا تبعا لتباين مواقع الفئات الاجتماعية داخل حياة العصر .